الملكة شجرة الدر

١

لما توفى السلطان الناصر صلاح الدين ملك مصر والشام فى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ترك مملكة شامخة، ولكنها مفككة العرى؛ وكانت وفاته خاتمة لعهد من أمجد عهود الإمبراطورية الإسلامية المصرية، ففيه حطمت المملكة الصليبية فى فلسطين، واستردت بيت المقدس (٥٨٣ هـ) ومزقت قوى الصليبيين فى سائر الأنحاء. وخلف صلاح الدين فى ملك مصر ولده الملك العزيز، وكان نائبه بها، وخلفه فى الشام ولده الأفضل، وفى حلب ولده المظفر. وبذا انقسمت المملكة المصرية الشامخة إلى ثلاث ممالك، وأخذت قواها التى حشدت من قبل مجتمعة لمحاربة الصليبيين، تتبدد فى سلسلة لانهاية لها من الحروب الأهلية، ونشبت الحرب حيناً بين العزيز وأخيه الأفضل. ولما توفى العزيز بعد قليل فى سنة ٥٩٥ هـ، وخلفه على عرش مصر ولده المنصور طفلا، سنحت الفرصة للأفضل فقدم إلى مصر بدعوة من الأمراء، واستولى على زمام الأمور بضعة أشهر، ولكن الحرب نشبت بينه وبين عمه العادل وانتهى الأمر بهزيمته واستيلاء العادل على عرش مصر والشام. وهنا آنس الفرنج ضعف المملكة المصرية، وقدمت حملة صليبية جديدة إلى مياه فلسطين، وطمع الفرنج فى استرداد بيت المقدس، ونشبت بينهم وبين العادل عدة مواقع انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين (٦٠٠ هـ — ١١٩٨ م). وفى عصر الملك العادل هبط النيل هبوطاً شديداً، وعانت مصر من القحط والغلاء أهوالا مروعة يصفها لنا عبد اللطيف البغدادى نزيل مصر يومئذ وصفاً ترجف له الفؤاد فرقا (١).

وفى سنة ٦١٥ هـ عاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر، وزحفوا على مدينة دمياط،

---

(١) راجع هذا الوصف فى كتاب « الافادة والاعتبار » لعبد اللطيف البغدادى (مصر) ص ٤٩ وما بعدها.

وسار الكامل ولد العادل ونائبه بمصر لمقاومتهم ؛ وقدمت عساكر الشام بقيادة أخيه الملك المعظم ، ولكن الصليبيين استولوا على دمياط بعد معارك شديدة ، وارتدت القوات المصرية إلى قرية المنصورة جنوبا ؛ ومات الملك العادل أثناء ذلك وخلفه على عرش مصر ولده الكامل ، وفى الشام ولده الملك المعظم . وحاول الصليبيون أن يسيروا من دمياط إلى الداخل ، ولكنهم ردوا على مقربة من المنصورة (٦١٨ هـ) . وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين على أن يخلى الفرنج دمياط ، ويستردوا بيت المقدس عدا الأحياء والمعاهد الإسلامية .

وحكم الملك الكامل زهاء عشرين عاماً ، وامتد حكمه إلى الشام واستقرت الأمور فى عهده وتوطدت أركان المملكة ، وانتعشت قواها المبددة . وتوفى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) .

نخلفه على عرش مصر ولده الأصغر الملك العادل أبو بكر وكان نائبه بها ، وكان ابنه الأكبر الصالح نجم الدين نائباً عنه بحلب وبلاد الشرق فلم يرقه هذا التصرف ، ورأى أنه أحق بملك مصر من أخيه ؛ وسار فى أنصاره معلنا الخلاف ، ووصل إلى جنوبى الشام بعد عدة وقائع وخطوب . وهنا دبر له الناصر داود صاحب الكرك كميناً وأسره وزجه سجينا إلى القلعة مع بعض حشمه وجاريته شجرة الدر أم ولده خليل (صفر ٦٣٧ هـ) ، فلبث يرسف فى اسره سبعة أشهر . ولما علم أخوه العادل باعتقاله أرسل إلى صاحب الكرك يطالبه بتسليمه نظير فدية كبيرة ، فأبى الناصر وطالب مقابل تسليمه بنيابة دمشق ؛ فعندئذ اتفق العادل مع عمه الصالح صاحب دمشق أن يسير كلاهما لقتال الناصر ويحصرانه بذلك من الشمال والجنوب . وفى أثناء ذلك تفاهم الناصر مع أسيره الصالح نجم الدين ، وأطلق سراحه وتحالف معه على أن يقطعه الشام ويستقل هو بملك مصر .

وكان العادل ملكاً سيئ السيرة ، يقضى وقته فى اللهو والمجون الصاخب ، ويطلق يد الندماء والعابثين فى شؤون الدولة ، فحقد عليه معظم الأمراء ، وكانت منهم جماعة من المماليك الكاملية تخشى سوء العاقبة وترى فى الملك العادل فتى طائشاً لا يصلح للملك وتتربص الفرص للوثوب عليه . فلما سار العادل لمحاربة الناصر صاحب الكرك ، رأوا الفرصة سانحة للعمل فساروا إليه فى معسكره ببلبيس ، وأحاطوا بخيمته وقبضوا عليه ، وكتبوا إلى الصالح نجم الدين يستدعونه

لتولى الملك . فسار الصالح إلى مصر فى عصبته ، ودخل قلعة الجبل وجلس على العرش (٢٥ ذى الحجة سنة ٦٣٧) وقبض على أخيه العادل وزجه إلى ظلام السجن ، فلبث فيه عدة سنين، ثم دس عليه الصالح من خنقه (٦٤٦هـ) ؛ وبذا لقى نهايته المحزنة .

٢

كان الملك الصالح نجم الدين حينما جلس على عرش مصر فتى فى نحو الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان مولده بمدينة القاهرة فى سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦م) وبها نشأ وترعرع . ولما استولى الفرنج على دمياط أيام أبيه الكامل (٦١٥ هـ) وعقد الصلح بينهم وبينه ، أرسله أبوه مع نفر من الأمراء رهينة إلى الفرنج مقابل رهائنهم حتى تنفذ شروط الصلح. ولما استولى الكامل على الديار الشرقية (آمد وغيرها) عين ولده الصالح نائباً عليها (٦٢٩ هـ) ثم أرسله فى سنة ٦٣١ هـ لمقاتلة الروم (البيزنطيين) . ولبث الصالح نائباً على الديار الشرقية ، حتى توفى أبوه فى سنة ٦٣٥ هـ ولقى ما لقى من الخطوب حتى استطاع أن يستخلص عرش مصر لنفسه من أخيه العادل حسبما قدمنا .

ودخل الصالح مصر فى أواخر سنة ٦٣٧ هـ ومعه شجرة الدر حظيته وأم ولده الأصغر خليل . وقد كان مقدم شجرة الدر يومئذ ، فيما يبدو ، أول عهدها بمصر . ولا تذكر الرواية اسمها قبل ذلك إلا حينما سجنت مع سيدها فى قلعة الكرك قبل ذلك بأشهر قلائل ، وهو فى طريقه إلى مصر . وتقول لنا الرواية إنها كانت فى صحبة الصالح مذ كان نائباً عن أبيه بالمشرق ، ثم صحبته عند سيره إلى مصر ، وشاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر .(١)

فمَنْ هذه المرأة التى سطعت غير بعيد فى بلاط مصر ، والتى قدِّر لها أن تتولى عرش مصر فيما بعد ، وأن تغدو بتبوئها الملك مثلا فريداً فى صحف التاريخ الإسلامى ؟

كانت شجرة الدر حسبما تصفها الرواية « جارية » تركية أو أرمنية أورومية ، اشتراها الملك الصالح أيام إقامته بالمشرق . وهنا يبدو السبب فى عجز الرواية عن

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ .

أن تقدم إلينا شيئا عن حقيقة أصلها ونشأتها ، فهى لم تكن إلا واحدة من ألوف الجوارى اللاتى كانت تغص بهن قصور الخلفاء والسلاطين فى تلك العصور ، ولا تعرف الرواية عنهن شيئاً إلا حينما يسطع نجمهن فيغدون « أمهات ولد » ينجبن الخلفاء والسلاطين ، أو يجزن بذكائهن وقوة سحرهن إلى ميدان السلطة والنفوذ ، ويشاطرن فى توجيه الشؤون .

وهكذا فإننا نقف على ذكر شجرة الدر لأول مرة فى سنة ٦٣٧ هـ وهى مع سيدها الملك الصالح فى طريقه إلى مصر ، وتصفها الرواية عندئذ « بجاريته وحظيته وأم ولده خليل » . وإذن فقد كانت شجرة الدر عندئذ ما تزال جارية وأم ولد فقط ، ولم تكن قد غدت زوجة شرعية للملك الصالح . وقد كان ولدها « خليل » يومئذ فيما يبدو طفلا لا يتجاوز بضعة أعوام ثلاثة أو أربعة ، وقد مات كما نعلم وهو مايزال فى طور الطفولة . وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما زُجّت مع سيدها إلى قلعة الكرك ، كانت حاملا فأسقطت غمًّا وروعاً . فإذا فرضنا أن هذا هو حملها الثانى بعد ولدها خليل ، وإذا ذكرنا أن سيدها الملك الصالح اشتراها مذ كان نائباً بالمشرق حوالى سنة ٦٣٠ هـ فإنا نستطيع أن نقدر سنها حين دخولها إلى مصر على الأقل بنحو خمسة وعشرين عاماً .

وكانت شجرة الدر امرأة بديعة الخلال وافرة الجمال والسحر ، حسنة التثقيف ، بارعة فى القراءة والكتابة . وتنوه الرواية فوق ذلك بوفرة ذكائها ودهائها وحسن تصريفها للأمور . وإذن فلم تكن شجرة الدر غانية قصر فقط ، ولكنها كانت فوق ذلك تتمتع بشخصية قوية ، وقد استطاعت غير بعيد أن تحرز بخلالها وقوة نفسها مكانة ممتازة لدى سيدها ، فكانت حظيته الأثيرة ، وتوثقت مكانتها بمولد ولدها خليل ، وبرزت الأمومة من بين صفاتها فعرفت « بأم خليل » وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ، ولازمها طول حياتها ، ولقبت به حين تولت العرش فعرفت « بالملكة عصمة الدين أم خليل شجرة الدر »[1]

---

(١) تختلف الرواية الاسلامية فى صحة اسم الملكة شجرة الدر ، فتذكر بعض الروايات أنه شجر الدر وليس شجرة الدر . وممن أورده بالصيغة الأولى أى شجر الدر جمال الدين ابن واصل وهو مؤرخ معاصر وقد ذكرها على هذا النحو مراراً فى كتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٣١ و٣٦٢) .

ولما ابتسم الدهر للملك الصالح ، وتولى عرش مصر تألق نجم جاريته وحظيته شجرة الدر إلى جانب نجمه . وكان فوق حبه العميق لها يقدر مواهبها ، ورجحان عقلها ، وكانت مذ جمع القدر بينهما تعاونه فى تدبير الأمور بحكمتها وصائب رأيها ، فلم تلبث أن تبوأت فى البلاط وفى الدولة أسمى مكانة ، وغدت ملكة غير متوجة ، يغلب نفوذها وسلطانها كل نفوذ وسلطان ؛ ولم تلبث أن غدت مرجع الأمر والنهى كله . ورأى الملك الصالح أن هذه المرأة الموهوبة الساحرة التى فتنته بخلالها الرفيعة ، تستحق أن تكون أكثر من حظية وأم ولد ، فأعتقها وتزوجها . ولم تبق شجرة الدر بعدُ جارية تسمو بجمالها وسحرها ولكنها غدت غير بعيدة سيدة القصر الشرعية . كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ فى بلاط القاهرة نفس الدور الذى لعبته من قبل صبح النافارية جارية الحاكم المستنصر وأم ولده المؤيد فى بلاط قرطبة . ولما توفى ابنها خليل طفلا بعد ذلك بقليل ، لم تصدع هذه الضربة الأليمة من مركزها بل لبثت محتفظة بنفوذها وسلطانها .

و٣٧٢) وكذلك أبو الفداء فى تاريخه (ج ٣ ص ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٩٢) وابن خلدون (ج ٥ ص ٣٦٢ و ٣٦٣ و ٣٧٧) وأخذ بعض المستشرقين بهذه التسمية (دائرة المعارف الاسلامية فى مقال شجر الدر ، وكذلك المستشرق لاين پول فى كتابه عن تاريخ مصر ص ٢٥٥) ولكن فريقاً آخر من المؤرخين ولا سيما المتأخرين يأخذ بالتسمية الأخرى أعنى شجرة الدر ومن هؤلاء الصفدى فى « الوافى بالوفيات » وابن قرأوغلى فى « مرآة الزمان » (وقد نقل عنهما صاحب النجوم الزاهرة) والمقريزى فى كتاب السلوك وفى الخطط وابن شاكر الكتبى فى (فوات الوفيات ج ١ ص ٩٧) وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ وما بعدها) ولو أنه فى كتابه المنهل الصافى يسميها شجر الدر (مخطوط دار الكتب ج ٢ ص ١٧٦ و ١٧٧) والسيوطى فى حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٣٨ و ٣٩) وابن إياس فى (بدائع الزهور فى ج ١ ص ٨٩) . ومن الغريب أن ابن خلكان وهو قريب من هذا العصر لا يذكر اسم شجرة الدر فى سائر المواطن التى لها علاقة بها مع أنه يحدثنا عن حياة الملك الكامل والصالح والعادل وغيرهم .

ومع أنه يبدو أن اسم شجر الدر هو التسمية الأصح من الناحية الرسمية خصوصاً وأن ابن واصل وهو مؤرخ معاصر عرف الملكة واتصل ببلاطها يؤيد هذه التسمية فانه يلوح لنا من جهة أخرى أن اسم شجرة الدر هو الاسم الغالب الذى كانت تعرف به الملكة فى البلاط وفى الحكومة ، أو بعبارة أخرى هو الاسم الشعبي الذى غلب عليها . ولهذا فضله وأخذ به معظم المؤرخين المصريين وفى مقدمتهم المقريزى . وقد رأينا نحن من جانبنا أن نأخذ بهذه التسمية الأكثر ذيوعا .

وكان الصالح نجم الدين ملكا متين الخلق وافر الحشمة شديد الهيبة ، يمقت المجون والعبث ، ويؤثر العزلة ويميل إلى صحبة أهل الفضل والتقى ، ولا يختلط كثيراً بالشعب . وكان يكل شؤون الدولة إلى كتّابه ، وله شغف خاص بلعب الصوالجة ، وإنشاء الأبنية الفخمة . وأما شجرة الدر فتصفها الرواية بأنها كانت إلى جانب خلالها الشخصية البديعة امرأة وافرة الهيبة تميل إلى التدين وتشغف بحب الخير وأعمال البر ، ولها فى هذا السبيل مآثر لا تحصى .(1)

ولم يكن للملك الصالح فى الوقت الذى بلغت فيه شجرة الدر أوج نفوذها سوى زوجة حليلة أخرى وهى المعروفة ببنت العالمة ، وكانت زوجا لمملوكه الجوكندار (حامل الصولجان) . فلما توفى تزوجها من بعده . ولم يكن بين جواريه العديدات من تدانى شجرة الدر فى مركزها أو تتسامى إلى نفوذها .

٣

وعُنِى الملك الصالح منذ تبوئه العرش بإصلاح الأمور وتوطيد الدولة ، وتوثيق روابطها المفككة ، وحالفه التوفيق فاستولى على دمشق من عمه الصالح إسماعيل وعين نائبه بها الصاحب جمال الدين يحيي بن مطروح ، وعين ولده المعظم توران شاه نائباً على البلاد الشرقية . واستولى بعد ذلك على عسقلان ، وانتزع الكرك وأعمالها من صاحبها الناصر داود حليفه القديم . ولم تمض أعوام قلائل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على معظم أنحاء المملكة المصرية القديمة وأن يقضى على أطماع الخوارج والمتغلبين فى النواحى .

وحالفه التوفيق أيضاً فى محاربة الصليبيين فهزمهم فى عدة وقائع محلية ، وزحف جنده على بيت المقدس وهزموا الفرنج وأحرقوا أحياءها النصرانية التى سُلمت إليهم أيام الملك الكامل ، وأعادوها إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى (٦٤٢ هـ ١٢٤٤ م) .

والملك الصالح هو منشئ فرقة المماليك البحرية التى لعبت أعظم دور فى تاريخ مصر فى القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد)

(1) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٩ .

وتبوأ عرش مصر منهم ثبتٌ حافل من الملوك العظام . وكان الملك الصالح يشغف باقتناء المماليك الترك ، وقد اقتنى منهم عدداً وافراً حتى ضاقت القاهرة بهم ، وضج الناس من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال ، وهو مما وصفه شاعر العصر بقوله :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد آخذ الله أيوبا بفعلته فالناس كلهم فى ضر أيوب

عندئذ رأى الصالح أن يبعدهم عن العاصمة ، فابتنى لهم فى جزيرة الروضة على مقربة من المقياس قلعة خاصة أسكنهم بها ، وسماهم المماليك البحرية ، وزودهم بأسطول نهرى من الشوانى المسلحة التى أعدت لقتال الصليبيين ، وكانت عدتهم زهاء ألف مملوك ، وقد عرفوا فيما بعد برجال (الحَلْقة) أو الحرس السلطانى ، وكانوا بما أثر عنهم من الشجاعة والبراعة فى القتال قوة لا يستهان بها .

وأصاب الملك الصالح فى أواخر عهده مرض عضال بدت أعراضه الخطيرة فى أوائل سنة ٦٤٦ هـ وقد وصف بأنه ناسور وعسر بول تلته قرحة فى الرئة . وكانت حوادث الشام يومئذ تزعج السلطان حيث استولى لؤلؤ الأمينى صاحب حلب على حمص ، فسار السلطان بالرغم من مرضه إلى الشام لإنجاد حمص ، وحمل فى محفة ، وهنالك بلغته الأنباء بأن حملة صليبية ضخمة فى طريقها إلى مصر . فاضطر إلى النزول عن حمص للمتغلب عليها ، وعاد إلى مصر فى محفته ، وقد اشتد به المرض ، ونزل بقواته فى أشموم طناح على مقربة من دمياط التى كانت فى ذلك الحين مجاز الصليبيين المفضل لافتتاح مصر ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ .

والواقع أن مصر كانت تواجه عندئذ أعظم حملة صليبية سيرت إليها ، وهى الحملة الصليبية السابعة التى قصدت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس . وكان الغزاة قد أمضوا الشتاء فى قبرص ثم ساروا إلى مصر فى أسطول ضخم ، ووصلوا إلى المياه المصرية تجاه دمياط فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ (يونيه سنة ١٢٤٩) . وفى الحال أوفد لويس التاسع رسله إلى ملك مصر بكتاب ينذره فيه بوجوب الخضوع والتسليم ، ويؤكد له أن المقاومة عبث وأنه سيصل إليه بالرغم من كل شىء ، وأنه جاء بعسكر كعدد الحصى . وكان الملك الصالح

مريضاً كما قدمنا ، وكان البلاط فى حيرة ، ولكن شجرة الدر كانت يومئذ إلى جانب السلطان ، وكانت تبعث بشجاعتها وثباتها إلى السلطان وبلاطه روح الثقة والعزم . فلما وصل كتاب ملك الفرنج حزن السلطان واغرورقت عيناه بالدمع ، ولكنه تذرّع بالشجاعة والأمل ، وبعث إلى ملك الفرنج بكتاب من إنشاء كاتبه القاضى بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر يرد فيه الوعيد بالوعيد ، وينوه بقوة مصر وما أحرزته على الصليبيين من الانتصارات ، وينذر فيه مَلكَ الفرنج بأنه سيغدو صريع عدوانه وبغيه .[1]

وفى اليوم التالى نزل الفرنج إلى البر ، وكان السلطان قد حصن دمياط وشحنها بالمقاتلة والسلاح ، وكان من المنتظر أن تقاوم الغزاة مدى حين . ولكن الفرنج حينما نزلوا إلى البر الغربى ، ووقعت بينهم وبين المسلمين المناوشات الأولى انسحب المسلمون إلى البر الشرقى ، وعندئذ دب الذعر إلى الحامية ، فما كاد الليل يرخى سدوله حتى غادر المسلمون قواعدهم وارتدوا إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح ؛ وهرع فى أثرهم أهل دمياط فارين هلعين ، ودخل الفرنج دمياط فى صباح اليوم التالى دون قتال ولا مقاومة ، واستولوا على ما فيها من الذخائر والأقوات الوفيرة . واستشاط السلطان حنقاً لما وقع وعنف قائد الحامية المهزومة الأمير فخر الدين يوسف ، وأمر بخنق عدة كبيرة من مقدمى الجند جزاء جبنهم وتخاذلهم .

ثم ارتد السلطان بمعسكره محمولا فى محفته إلى المنصورة ، وهى المحلة التى أنشأها أبوه الملك الكامل على النيل حينما هاجم الصليبيون دمياط لأول مرة فى سنة ٦١٥ هـ ونزل بقصرها المتواضع . وأمر السلطان بتجديد المنصورة وتحصينها ، وإعدادها لنزول الجند ، واجتمعت القوات المصرية فى تلك القاعدة الجديدة ، وقدم أسطول نهرى من الشوانى الحربية ورابط فى النيل تجاه المدينة ، وأنفذت الأوامر بحشد الجند إلى سائر الأنحاء ، وتوافد على المعسكر السلطانى سيل من الجند المتطوعة والعربان ، وبذل المسلمون غاية جهدهم فى الأهبة لمواجهة الخطر الداهم . وكان الفرنج فى أثناء ذلك قد استقروا بدمياط وشحنوها بالمقاتلة والسلاح ، وأخذوا يتأهبون للزحف صوب الجنوب .

---

(١) راجع نص هذين الكتابين فى « السلوك فى دول الملوك » للمقريزى ج ١ .

وكانت المناوشات تقع أثناء ذلك سجالا بين المسلمين والفرنج ، وكلما سقطت جماعة من الفرنج أسرى فى يد المسلمين أُرسلت إلى القاهرة وطيف بها لتقوية الروح المعنوية لدى الشعب القاهرى الذى ساد عليه الوجوم مذ سقطت دمياط . واستطاعت عساكر الشام من جهة أخرى أن تهاجم الصليبيين وأن تنتزع منهم مدينة صيداء ، فجاء سقوطها معززاً للثقة والأمل .

واستمر الأمر على ذلك زهاء ستة أشهر من صفر إلى أوائل شعبان (من يونيه إلى نوفمبر سنة ١٢٤٩) والسلطان الصالح أثناء ذلك يعانى أوصاب المرض ويسير إلى الموت بخطى بطيئة . وفى أوائل شعبان اشتدت عليه وطأة السل ثم أصابه إسهال عجل بالخاتمة ، فتوفى فى قصره المتواضع بالمنصورة ليلة ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) وهو فى الرابعة والأربعين من عمره . وأوصى قبيل موته بالعرش لولده الملك المعظم توران شاه نائبه فى الديار الشرقية ، وكان يومئذ فى حصن كيفا من أعمال ديار بكر ، فأنفذت إليه الكتب تدعوه إلى مصر على عجل .

٤

كانت وفاة السلطان فى تلك الآونة العصيبة ضربة مؤلمة ، وكانت كفيلة بأن تقضى على كل تدبير وأُهبة للقاء العدو المغير . ولكن القدر كان رحيما بمصر ، وقد شاء القدر أن يختار لإنقاذ الموقف واتقاء الكارثة ، تلك الشخصية القوية الحازمة ، شجرة الدر

كانت شجرة الدر إلى جانب زوجها السلطان المريض فى قلب المعسكر السلطانى ، تشرف على تدبير الشؤون وإنفاذ الأوامر بمعاونة رجال الخاص المخلصين ، وفى مقدمتهم الأمير فخر الدين يوسف ، ومحسن الطواشى . وكانت ترقب سير المرض بجزع ، وتتوقع موت السلطان من وقت لآخر . فلما وقعت الخاتمة المحزنة ، كانت على قدم الأهبة ، وكانت قد قررت أمرها ، واتخذت أهبتها لمواجهة كل احتمال . كانت تلك المرأة الذكية تعرف أن وفاة السلطان سوف تثير الأحقاد الدفينة ، وتمزق وحدة الجيش والأمة ، وتذكى ضرام الحرب الأهلية المخربة ، كل ذلك والبلاد تواجه خطر الغزو الداهم ، والعدو المغير جاثم فى أرضها يتأهب لا نزال ضربته القاضية .

وهنا تبدو عبقرية تلك المرأة المدهشة . ذلك أن السلطان ما كاد يسلم النفس الأخير ، حتى استدعت الأمير فخر الدين يوسف كبير الخاص ، ومحسن الطواشى وأوصتهما بكتمان موت السلطان خوفاً من سوء العواقب ، واتفقت معهما على تدبير أمور الدولة حتى يحضر ولد السلطان الملك المعظم من حصن كيفا ، فأذعنا للأمر . وكان الأمير فخر الدين رجلا وافر العقل والتدبير ، فبذل لتنفيذ هذه الخطة ، أصدق العون ، فأخذ العهد على كل من وقف على موت السلطان من رجال الخاص والأطباء والغلمان ، وتولى غسل جثمان الملك أحد الأطباء المعالجين ، ووضع الجثمان فى تابوت حمل تحت جنح الظلام إلى الروضة ، ثم دفن فيما بعد فى تربته بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة . وبقيت الخدمة السلطانية على حالها ، والأمراء يحضرون للخدمة كالعادة ، وشجرة الدر تقول لهم « السلطان مريض ما يصل إليه أحد» . وكان السماط السلطانى يمد فى مواعيده ، وكأن السلطان حى يتناول طعامه كالمعتاد ، وكانت الأوامر والكتب والمناشير تخرج كل يوم ممهورة بالعلامة السلطانية (توقيع السلطان) . وهنا تختلف الرواية فى تفسير هذا اللغز المحكم ، فيقول البعض إن السلطان حينما شعر بدنو أجله وقع على عدد كبير من الأوامر للاستعانة بها على إخفاء موته حتى يحضر ولده . ويقول البعض الآخر إن شجرة الدر كانت لبراعتها فى الكتابة تقلد العلامة السلطانية على الأوامر بمهارة . وفى رواية ثالثة أن الذى كان يقوم بتقليد العلامة السلطانية هو غلام من غلمان السلطان يدعى سهيل (١) .

وعلى أى حال فقد استطاعت شجرة الدر أن تنفذ خطتها الجريئة ببراعة تثير الإعجاب . وفى غداة وفاة السلطان استدعت أمراء العسكر وقالت لهم إن السلطان قد رسم بأن يحلفوا له ولابنه الملك المعظم توران شاه ، أن يكون سلطاناً بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف أن يقوم بقيادة الجيش وتدبير أمور المملكة ، فأذعن الأمراء للأمر باعتبار أن السلطان ما يزال حيا ، ولكن يعجزه المرض عن القيام بالأمر . وأنفذت شجرة الدر فى نفس الوقت إلى الأمير حسام الدين نائب السلطان بالقاهرة أمراً ممهوراً بالعلامة السلطانية أن يقوم بتحليف أكابر الدولة

---

(١) راجع ابن واصل فى « مفرج الكروب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٦٢) والسلوك فى دول الملوك (ج ١ – ٢ ص ٣٣٩ و ٣٤٤) والنجوم الزاهدة عن مرآة الزمان (ج ٦ ص ٣٣٣) .

ومقدمى الجند بالقاهرة على ماتقدم ، فقام بتنفيذ الأمر بحضرة قاضى القضاة وكاتب الانشاء الشاعر بهاء الدين زهير ، وصدرت الأوامر إلى خطباء الجوامع بالدعاء للملك المعظم توران شاه بعد الدعاء لأبيه .

وسارت الأمور حينا على هذا النحو والأمير فخر الدين يوسف يقوم بتدبير الشؤون وإنفاذ الأوامر باشراف شجرة الدر وتوجيهها . وسار لاستدعاء الملك المعظم من حصن كيفا زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاى .

محمد عبد الله عنان

(للبحث بقية)